عُلماؤُنا

وتُراثُ الأُمَم

أ.د. محمد محمد أبو موسى

عُلماؤُنا
وتُراثُ الأُمَم

عُلماؤُنا
وتُراثُ الأُمَم

أ.د. محمد محمد أبو موسى

بسم الله الرحمن الرحيم

* * * * *

الحمـــدُ لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على رسوله الذي اصطفى، وبعـــد .

فإن قضية موقفنا من تراث الأمم وآثارها، وجملة ما أبدعته، فيما اصطُلح على تسميته بـ "العلوم الإنسانية" ـــ قضيةٌ قديمة، وقد طال الجدلُ حولها في أوائل القرن الماضـي، وقد أثيرت منذ بداية الصدام الحضاري والفكري بين الأمة الإسلامية والأمم الأوربية المسيحية، وذلك بعدما مَرَّت عليها قرونٌ من الغفلة والتهاون، استيقظت فيها أممُ الغرب وقطعت أشواطاً في مختلف المعارف الإنسانية .

---

* أصل هذا البحث محاضرة ألقيت في النادى الأدبي بالقصيم .

ولا أعرفُ أن مثل هذه القضية قد أثيرت في تاريخ الأمم، وتاريخ الصراعات الحضارية والفكرية بهذا الحجم، وهذه الإطالة، وهذا الإلحاح، الذي شغلت به مساحات زمنية وعقلية في تاريخنا الحديث وفي واقعنا المعاصر .

وكان ما كُتب جديراً بتركها لكثرته وشيوعه، ولكنه حدث أن نَبَتَتْ فينا نابتةٌ هذه الأيام، أعادتها بعناد وإصْرار واستِفْزَاز، وألبستها ثوباً من ثياب الزّور، هو ثوب (التنوير) .

وقد عمدت هذه الطائفة إلى إخراج جانب من جوانب الحوار القديم يخدمُ أغراضَها، دون أن تكونَ أمينةً في عَرْضِها فتقدم الجانب الآخر، حتى يكونَ القارئ على بَيِّنة ويرى الرأي الآخر، ويكملُ لديه طرفا الحوار .

ثم إن الجيلَ الذي تُنْقلُ إليه الآن الأمانةُ ليست لديه خِبرةٌ بما حدث، ولم تكتمل عنده الأدوات

التي تعينه على معرفة الزيف فيما فيه زيف، ولهذا رأيت أن أكتب في هذا الموضوع حتى لا يظل أبناؤنا يسمعون القضية من جانب واحد .

وقد رأيتُ أن أعرض مواقفنا المختلفة من علومنا وتراثنا ومن علوم الآخَرين وتراثهم، وأن أشير إلى ما يتصل بهذه المواقف، ثم أجعلُ موقفَ علمائنا من تراث الأمم نوراً نهتدي به في يومنا وفي غدنا، وموقفُهُم جَدِيرٌ بأن ننظر فيه وأن نهتدي به، لأن أجيال علمائنا هم الذين أقاموا حضارتنا التي غلبت وسادت أزمنة متطاولة، وأحرزت بهم الأمة كثيراً من الانتصارات، وكثيراً من التقدم، ثم إن التلازُمَ بين الحياة الفكرية والحيوات الأخرى في الأمة الواحدة حقيقةٌ ثابتة لا ريب فيها، ففي الزمن الذي عاش فيه المتنبي شاعر العربية الأكبر كان يعيش معه

أبو الفتح ابن جني الإمام اللغوي، وكان العصر عامراً بشيوخ الفقهاء والمفسرين والمحدِّثين، والأفذاذ من قواد الجيوش، وانتصارات سيف الدولة ووقائعه بالروم، كلٌّ ذلك مرتبطٌ بعضُه ببعض قوةً وضعفاً، وصِحَّةً وزَيْفاً، فإذا رأيتَ اختلالا من جانب من أبواب الحياة، واستطاعت عينُك أن تراه، فاعلم أنه قائمٌ في باب آخر، وإن كانت عينُك لا تراه .

وكل هذا يؤكدُ أن موقفَ علمائنا من تراث الأمم في هذا الزمن الزاهر من تاريخنا كان موقفاً مدروساً في حركة حياة لم يكن فيها للعشوائية مكان .

والذي يجري في ساحتنا الآن حول مجموعة العلوم العربية والإسلامية، وهي التي أعنيها في بحثي هذا، يتلخصُ في مواقف ثلاثة :

الموقف الأول : هو الموقف الذي يُلِحُّ في دعوتنا إلى أن نَصْطنعَ علومَ الآخرين، وأن نتعلم ما يتعلمون، ونفكر كما يفكرون، وأن نعيش كما يعيشون، وأن نتقلب في الحياة كما يتقلبون، ولا يجوز أن نفرق بين علومهم وسلوكهم، لأن العلوم هي الأصل النظري للسلوك والسلوك هو الجانب التطبيقي للعلوم، والعلوم مجموعة قيم فكرية وأخلاقية، ولهذا كان السلوك نابعاً منها، وهذا الجانب ألحَّ عليه رجالٌ لا تزال أسماؤهم تُذْكر، وهي موصوفةٌ بصفات عاليةٍ تُغري الآخَرين بالأخذ عنهم، وقد تطرفَ بعضُهم وجاهر بما يضمره غيرُه من نظرائه، فقال: يجب أن نترك الحديث عن خالد بن الوليد وعمر بن الخطاب والجاحظ والمتنبي، ويكفي ما قلناه فيهم وما ذكرناهم به، وما أخذوه من وقتنا، ولننقل الحديث

إلى كانت وديكارت وهيجل ونظائرهم من أهل الفكر الحي الذي صاغوه شعوباً حَيَّة .

(ينظر في هذا طه حسين وسلامة موسى) .

وقد انبَثَقَ من هذا الاتجاه الهجومُ الشَّرس على علومنا وعلمائنا وفقهائنا وشعرائنا، فالنحو علم استُخْرِجَ من لغات الصحراءِ والخرائب، ومن أفواه قيس وتميم، وتلك أمَّة قد خلت، ويجب أن تخلو لغتها ونحوها كما خَلَت، وأن نستخرجَ نحونا من لغاتنا نحن، وأن نعودَ إلى ألسنتنا، كما تستخرجُ الأممُ الأخرى نحوها من ألسنتها المتحركة في أفواهها، وليس من ألسنة هُذَيل وثَقِيف . (ينظر في هذا دراسات الدكتور سعيد بدوي)

والبلاغة علم بلغ حد اليأس، ويجب أن يدفن في تربة طيبة وأن نغرس في رفاته غرس

البنيويين والأسلوبيين، وأما نقد الشعر وتذوقه ومعرفة أسراره فالذي عندنا منه كالذي عند حلاق القرية من علم الطب، والذين يأخذون عن علمائنا علم صناعة الشعر ويتركون (منجزات العصر) كالذين يذهبون إلى حلاق القرية ويتركون الطبيب المتخصص .

(ينظر في هذا كتابات لطفي عبد البديع وصلاح فضل)

أمّا شعراؤنا فقد كانوا في الجاهلية يمثلون موكبَ النفاق حول ارستقراطية قريش (هكذا)، ثم في الإسلام ما لبثوا بعد عصر النبوة أن تحولَ ركبُهم وتحولت مزاميرُهم إلى ارستقراطية بني أمية ثم بني العباس، ومن طول ممارسة الشعراء للنفاق جهلت ألسنتُهم مسالكَ الصدق، فلما تكلموا

في الطبيعة عجزوا عن وصفها، لأنهم اعتادوا على النفاق لا غير .

والفقهاء لم يسلموا من هذه الحملة الباغية، فقد كتبوا الفقه وهم مرعوبون من السيف، أو طامعون في المنائِحِ، فانحرفوا بالفقه لصالح مَن في يده السيف والذهب .

(يراجع في هذه المسألة عبد القادر القط في كتاب: إلى طه حسين في عيد ميلاده السبعين) .

وأعتقدُ أن تاريخَ الأمم كلها لا يعرفُ كُتَّاباً حملوا أقلامَهم لهدم علومهم وحضارتهم ورجالهم وتاريخهم كما فعل هؤلاء .

وأصلُ هذا الاتجاه لا يُرَدُّ ــ كما يُقالُ ــ إلى التأثر بالفكر الغربي، لأن التأثرَ بالفكر الغربي يُفْضِي إلى عكس هذا، والذي يكتبه الأوربيون إلى شعوبهم مؤسَّسٌ على تأصيل ثقافتهم وعلومهم،

وتحليل هذه العلوم وتجليتها، ولايزالون يشرحون أفلاطون وأرسطو وهوميروس وأريستوفان، ويضعونهم في مكانة عالية للشعوب الأوربية كلها، ومكانتُهم عند هذه الشعوب لا تقل عن مكانتهم عند اليونان الأقدمين، ومهما كانت اتجاهات الكاتب فإن تـــأصيلَ المعرفة مما لا يجوزُ الحيادُ عنه .

ولا تزال كتبُ النقد تكتبُ فصولا مطولةً عن أفلاطون وأرسطو وغيرهم، ولا تزال الأقلام تنقح تراثهم جدة وحفاوة وتجلية، وتُدَبِّجُ حولهم أكثر مما تدبج حول النقاد المعاصرين، ثم ترى الكاتبَ يتجه إلى تأكيد النواحي الإيجابية في تراث رجال قومه، ويبعثُ هِمَّةَ القارئ ليراجع ويعاود قراءة هؤلاء الشعراء، والنقاد والمفكرين، فإن كان كاتباً إنجليزياً رأيته شديدَ الحفاوة والاعتزاز بالشعر

الإنجليزي ورجال أمته، وإذا كان فرنسياً رأيته شديدَ الحفاوةِ بمجد بلاده وعزها القومي كما يقولون .

وهكذا ترى الكاتب مُتَّجهاً إلى جمهور شعبه وجنسه وكأنهم بنو أبيه، يبثُّ فيهم حبَّ المعرفة، ويغريهم بالإقبال على رجالهم ومفكريهم وشعرائهم وأهل العلم في تاريخهم كله، وهذه الرسالة الحقيقية لحملة الأقلام: تثقيف الشعوب وصقلها بثقافتهم وعلومهم، وشحذ روح اللانتماء والولاء للأمة وتاريخها ورجالها، وبث ذلك كله حتى يَسْطعَ في كل بيت يتوارثه الأبناء عن الآباء، وبهذا تنهض الشعوبُ وتسيرُ قدماً إلى الأمام .

ولا يمكنُ أن نعتقدَ أن الذين يهدمون علومَنَا بهذا الحقد الأسود، ويشيعون في علمائنا وسفرائنا

ورجالنا مقالةَ الزِّراية والقَدْح، لا يمكنُ أن نعتقدَ أنهم في ذلك متأثرون بالكُتَّاب الغربيين، الذين يسيرون في أممهم سيرةَ الشيوخ في أمتنا، ولو كانوا فينا لكانوا شيوخاً محافظين، لم تعرفْ هذه الأمم شاعراً فذاً ولا مفكراً مبدعاً ولا نابهاً نبغ في شعر أو نقد إلا وهو عظيم لارتباطه بثقافته وتاريخه ورجاله، وبمقدار تفوقه يكون تشبثه بما نسميه الأصالة والتراث، وهذا ظاهر ظهوراً لا يلتبس، ويعرفه من قرأ مختصرات فكر هذه الأمم .

قلت إن هذا الاتجاه الغريب الذي يضربُ علومَنَا وتاريخنا ورجالنا لا يمكنُ أن يكونَ ثمرةَ قراءة لما تكتبه الأقلام الحرة في أي أمة من الأمم، وإنما نجدُ علاقةً واضحةً بَيْنه وبين كتابات أخرى ليست من باب العلم في شيء، وإنما هي من باب السياسة، هذه الكتابات هي ما كتبه رجال

من الأوربيين غَمَسُوا أقلامَهم في تراثنا وعلومنا، وهم فرع المستشرقين الذين كانوا يعملون في مؤسسات التبشير التابعة لوزارات الاستعمار، وكانوا مستشارين في شؤون الشرق الأوسط .

وبَدِيهةُ العقل تقولُ إن نتائج دراسات وتوصيات هذا الفرع ليست لصالحنا، وإنما هي موظفة لصالح أمته وأهدافها في استعمار بلادنا والسيطرة عليها، وليس في هذا مجال لما نسميه الحياد الفكري ولا المنهج العلمي، وكانت توصيات هؤلاء وتقاريرهم تؤكدُ حقيقةً واحدةً يُجْمِعُ عليها أولُهم وآخرُهم، وهي ضرورة ضرب الحضارة الإسلامية وتفتيتها والقضاء عليها لأنها هي أساس الوحدة الجامعة لأمة الإسلام على اختلاف شعوبهم وأجناسهم وتباعد ديارهم، وإن تفريق المسلمين شعوباً وأقطاراً، بتجزئة بلادهم هذه التجزئة التي

فرضها علينا المستعمرون بعد الحرب العالمية الأولى غير كافية في فَصْم العُرْوة التي تجمعُ أبيضَهم وأسودَهم .

والحضارةُ الإسلامية لها عُمُدٌ وأركان قامت عليها وهي علوم العربية والإسلام، وعلوم العربية جزء من العلوم الإسلامية، والرابطة بين العلوم العربية والإسلامية رابطةٌ عضوية كعلاقة اليد باليد، وبها صارت هذه العلوم وحدةً واحدةً، إذا أسقطوا منها عِلْماً تَدَاعَتْ له سائرُ العلوم، لأننا لا نتصورُ دراسةَ فقه بعيدة عن اللغة، كذلك لا يقومُ النظر في التفسير ولا في الحديث إلا على اللغة، والضربُ في العلوم الإسلامية يستفزُّ المسلمين ويهيجهم، ولكن ضرب علوم اللغة بما يسمُّونَه (منجزات العصر) يعني الفكر الغربي نحو الهدف

من غير ضجيج وتحت أسماء مُغْرية مثل: التحديث، التطوير، الإحياء، التجديد .. إلى آخره.

وبهذا يُنْقضُ الأساسُ الذي بُنِيَت عليه الحضارة الإسلامية، وهذا شيءٌ مما كانت تقومُ عليه توصيات وتقاريرُ المستشرقين الذين يعملون في مؤسسات الاستعمار منذ بداية القرن التاسع عشر وربما قبله، ولا يزالُ هذا الأصلُ قائماً في علاقات القوم بنا، وهو حاضر في نفوسهم لا يغيب عنها وخاصة عند من لهم صلة بشؤوننا من رجالهم، ثم إن انقطاع هذا الفرع من المستشرقين لدراسة علومنا ومجتمعاتنا أكد لهم أمراً يجب أن يكون حاضراً في نفوسنا، وهو أن هذه العلوم هي الجانب التحليلي والفقهي لدين الله، لأننا لا نستطيع أن نعبدَ اللهَ كما أمرنا أن نعبده إلا بالنظر في كلامه سبحانه، وكلامِ رسوله صلوات الله وسلامه عليه،

وهو معرفة أصول هذه العلوم، وبهذا يؤول الأمر إلى أن يكونَ ضربُ علوم العربية الذي يلحُّ عليه الصغارُ منا والكبارُ مُفْضِياً إلى العجز عن النظر في كلام الله، وكلام رسوله صلوات الله وسلامه عليه، وبهذا يدخلُ الفسادُ في الدين، ويَسقطُ من أيدينا حبل الله المتين .

ولا تعترض عليَّ بأن هناك أمماً إسلامية لا تعرفُ اللسانَ العربي ولا علومه، لأني أردُّ اعتراضَك هذا بأنهم يأخذون عنا نحن أصحاب اللسان فَهْمَ الدين، وقد أدرك أعداؤنا أن الحضارة الإسلامية التي هي مجموعة علوم ومعارف وقيم، والتي طبعت سلوك المجتمعات الإسلامية بطابع خاص ـــ هي التجسيد الفقهي والثقافي والحضاري لدين الله، وأن ضرب هذا الدين من جهتها هو الغاية الحقيقية، وكان هذا ظاهراً أيضاً في تقارير

هؤلاء المستشرقين وتوصياتهم للجهات التي تستهدف السيطرة علينا وتسلك السبل إلى غاياتها بالدراسة والفهم والعلم .

وبهذا يظهرُ أن الهجومَ على علوم العربية والذي ذكرنا إشارات موجزة دالة عليه، وقلنا إنه أمرٌ غريب في تاريخ الأمم وتاريخ العلوم، أقول هذا الهجوم خارجٌ عن دائرة البحث العلمي، وداخلٌ في باب سياسة استعمارية قديمة، ولا تزال أصولُها قائمةً في صدور وَرَثة هذه السياسة في الأمم الأخرى .

ويجبُ بجانب هذا أن تتعرفَ على تاريخ الرجال الذين كانوا من أوائل من تكلموا في هذا الاتجاه منا، ويكفي أن أذكر إشارةً موجزةً هي أن من أكابر رجال هذا الاتجاه من كانوا أعضاء أوائل في الأحزاب الشيوعية العربية، ومنها

الحزب الشيوعي المصري الذي أسَّسَه يهوديٌّ صهيوني، وقد خرج هذا الحزب قبل سنة ١٩٤٨م في شوارع قاهرة المعز يطالبُ بإنشاء وطن قومي لليهود، فخرج عليهم العامةُ يريدونَ الفتكَ بهم، وكان منهم سلامة موسى، وهو رجلٌ وثيق الصلة بكثير من الرواد، وكل رائد من الرواد يجتهدُ أن يصلَ حباله به وإلى الآن .

وهذه الصَّواعقُ المرسلةُ الآن على علومنا، والتي يقومُ بها من يوصفون بأنهم دعاة التنوير، هي في الحقيقة بأيدي بقايا من دراويش هؤلاء (الحرس الشيوعي القديم) . ولا أعرفُ واحداً يدعو إلى ما يدعون إليه وفي صدره إيمانٌ بغيب يدلُّ عليه كلامٌ أو فعل، ثم إنهم في أوساطهم العلمية معروفون بالمجاهرة في مخالفات أصول الآداب الإسلامية، وإنهم جميعاً يجاهرون بالفطر

في رمضان، ويجبُ أن يُضافَ هذا كله بعضه إلى بعض لتظهر صورة الحقائق الغائبة، وقد تقفُ معي حائراً حين ترى وسائل التوجيه الثقافي والفكري في كثير من أقطارنا في أيديهم، وإنما ذكرتُ فِطْرَهم في رمضان لا لأن أرد آراءهم بذلك، وإنما لأُعِينَ على معرفة حقيقتهم .

ثم إني على يقين من أن بعض الأغْرَار من الغلمان الذين يحطِبُونَ في هذا الوادي ليسوا منظومين في هذا السلك الخبيث، وإنما هم تلاميذُ عجزوا عن فَهْم علومنا، وليس عندهم طاقةٌ ليصبروا عليها، فاختصروا الطريقَ بالهجوم عليها، ووضعوا في أفواههم متوناً من معارف سَطْحية على غير بصيرة، وقد استهواهم أن يُقَال عنهم: إنهم حداثيون، وإنهم غير جامدين، وإنهم أحرار متنورون، متثقفون، إلى آخر هذا اللغو، ولو علموا

أن الحداثة فرع من الماركسية، التي تلتقي مع الصهيونية في أرومة عدائية واحدة، لهالهم ذلك ولرجعوا عن هذا العبث، ولأدركوا أنهم كالأطفال الذين تسللوا في غَفْلَة أمهاتِهم إلى أمكنة محظورة ليعبثوا في أنابيب الغاز، أو في صيدلية الدواء، وهؤلاء الأغْرَارُ المضللون يتكاثرون في هذه الأيام، لسبب واحد هو سقوط وسائل التوجيه الثقافي والإعلامي في أيدي عصابة أحفاد الحرس الشيوعي القديم .

ويقابلُ هذا الموقفَ الرافضَ للتراث رفضاً كليّاً موقفٌ لآخر انْكَفَأَ على التراث انكفاءً كاملاً، وأغْمَضَ عينيه وسَدَّ أذنيه عن كل ما يدور حوله لاعتقاده أنه فساد، واكتفى عامةُ هذا الاتجاه باستيعاب العلوم وشرحها للأجيال ورياضتهم على دروب فهمها وتفهيمها، وهذا عملٌ جيدٌ جداً ويعني

استمرارَ وتواصلَ هذه المعارف حتى لا تنقطع سلسلةُ توارثها، أمَّا ما وراء ذلك من الاجتهاد في نَفْثِ الروح في هذه العلوم وإحيائها ونقلها من صيغ العصور القديمة إلى العصر الذي نعيشه، على وجه مدروس، يحفظُ لها جوهرها وصفاءها، ويجلي تجلياتها، ويدنيها من فكر الجيل الحاضر كما كان يفعل علماؤنا في الأطوار التاريخية المختلفة، كل ذلك قَصَّرَ فيه هذا الاتجاه، إلا بعض الأعمال المتناثرة التائهة في بحر الركود الذي ترانا فيه غرقى .

وقد كان كل جيل من أجيال علمائنا يكتب هذه العلوم كتابة جديدة مجتهدة، ويقدمها لجيله، يفرغ فيها نفسه وعقله وعصره وروح زمانه الذي عاش فيه، ولم يكتفِ جيلٌ بالذي كتبه الجيل السابق، وإنما تابعوا واستدركوا وحَقَّقُوا واستخرجوا

وهَذَّبوا ورجحوا وناقشوا، وكلٌّ جيل وضعَ بَصْمتَه على هذه العلوم . ترى ابن هشام يكتبُ النحو الذي كتبه سيبويه وكتبته أجيال بعد سيبويه، ومع هذه الكثرة وهذا التنوع تجد كتابات ابن هشام متميزةً بروحه وروح زمانه، تراه يقدم المادة النحوية تقديماً آخر، لم يطالب طلاب العلم في زمانه أن يحصلوا النحو من شروح كتاب سيبويه، وإنما كتب كتاباتٍ فيها لُمَعٌ وإضاءات وفيها نَبْضُ الزمانِ الذي يعيشه، ثم هذه الكتابات تأخذُ بيد الطالب خطوةً على طريق المراجع الأم، ولا يزالُ الطالبُ ينتقل من زمنه إلى الزمن الذي سبقه حتى يلتقي كتاب سيبويه، وهو قادرٌ على فَهْمِه .

وهكذا تَخَرّجَ العلماء وهكذا فعل غيرُ ابن هشام، ترى أجيال الفقهاء يتبعُ بعضُهم بعضاً جيلا بعد جيل، وكلٌّ جيل يأخذُ معارفَ من سبقوه

ويقدِّمُها لزمانه بلغته هو وإضافاته هو، ويثيرُ غوامضَها ويبسطُ مجملها ويشرحُ مبهمها، وترى المادة العلمية التي كتبوها وإن كانت تلتقي في الأصول والثوابت مع من قبلهم، إلا أنهم وضعوا عليها ميسمهم وميسم زمانهم، وقرَّبُوها من جيلهم ونَفَثُوا فيها من أرواحهم وفُهُومهم، إلى آخر هذا الباب المتسع الذي يشرحه لك . لك أن تتأملَ كيف صاغ الفارسيُّ علمَ سيبويه، وكيف انتقلَ به من طور إلى طور، أو تتأمل ما صنعه الخطيبُ القزويني في كتاب المفتاح، واحذرْ أن تنظرَ نظراً سطحيّاً فتستهين بما لا يُستهانُ به .

ثم إن هذا هو الطريق الذي سلكهِ علماءُ الأمم كلها، وقد سبق أن ذكرتُ أن كُتّابَ الأمم الأوربية الذين ترجعُ أصولُ حضارتهم إلى الأصول اليونانية، لا يزالون يتواترون على شرح أفلاطون

وأرسطو وسوفيكليس وهوميروس وأريستوفان وغيرهم ممن وَصَفُوا علومَ اليونان، ولم يكتفِ جيلٌ بشرح الجيل الذي سبقه، بل لم يكتفِ كاتبٌ في زمن بشروح الكُتَّاب الذين يعيشون معه، وإنما كلٌ له مَلْحَظٌ وله بصيرة وله فهمه ولُمَعُه ونفحاته وتجلياته، وبهذا تتكاثرُ المعرفةُ، وتعظمُ، وتتنوعُ، وتعيشُ في قلب الزمن الحي، ولم تعدْ تراثاً تاريخياً، وإنما فكرٌ حاضر، يؤثرُ ويتأثر ويحيي العقول الحية وتحييه العقول الحية، يعيش في حوار مع العقل الحي جيلا بعد جيل، يغذيها وتغذيه ويزدهر بها وتزدهر به، ويشرق فيها بعَبَقِه القديم، وتشرقُ هي فيه بسخائها الحاضر .

ولهذا وغيره قلت إن صياغةَ المعرفةِ بروح العصر ليست مهمةً سهلةً وليس كما يتصوره الذين يعيشون مستريحين بعيداً عن مَغْمَعَات

الصراع، حيث يَحْسبون أن المسألة تنتهي بأن تضعَ الكِتابَ القديم بين يديك وأن تتقن أسلوبه يعني تفهمه وتلخصه، أو تكتب مادته كما هي بأسلوب سهل، لا ليس هذا مما نحن فيه ، لأن نقلَ المعرفة من طَوْر إلى طَوْر لا يَتَأَتَّى إلا لأفراد الزمان، وهم الرجال المنقطعون الصابرون المثابرون، وقد أصبح هذا واجباً علينا وهو فرضٌ في أعناق القادرين عليه، لأن الطَّفْرة الاجتماعية التي نعيشها باعَدَتْ كثيراً بين جيلنا والصيغ القديمة، وكان جيلُ ابن هشام أقدرَ على قراءة من سَبَقَه من جيلنا هذا، الذي أصبح ترويضُه على معرفة علوم أمته وأصول حضارته أمراً محتاجاً إلى جهاد ومكابدة، ولا ينهضُ بذلك إلا أهلُ العلم، ولأجل ما فيه من مشقَّة ومكابدة وحاجته إلى صبر وانقطاع فضَّلَ الله الذين أتوا العلم درجات،

ولو كان الأمرُ سَهْلا رَهْواً كما نظنُّه لما كان هناك وَجْهٌ لهذا التفضيل .

قلت إن جيلنا لم يَقُمْ بهذه الفريضة، واكتفى بالمحافظة على علومنا يفقهها ويفقهها، لأنه رآها في قلب عاصفة من جهنم تكتسحها اكتساحاً وتجتثها اجتثاثاً بوحشية، وبروح بربرية لا تقيمُ للعقل ولا للحق ميزاناً .

وهناك اتجاهٌ ثالث جاء وَسَطاً بين هذين الاتجاهين، وهو ما يراد بالأصالة والمعاصرة، ويتمثل في إضافة مختارات من الفكر الغربي إلى مقالة علمائنا، وترى عبد القاهر وكروتشة وابن جني وتشومسكي وسيبويه، إلى آخر ما ترى .

ثم إنك ترى كثيراً من رجال هذا الباب يضعون المقتبسات الغربية موضعَ الشاهد والدليل، فإذا وافقتْ هذه المقتبسات كلامَ علمائنا صَحَّ بهذه

الموافقة كلامُهم، وإذا خالفتْ سَقَطَ بهذه المخالفة كلامُهم .

وهذا الاتجاه صار الآن غالباً، ويتبعه نفر كثير من الباحثين والأساتذة، ويَسْتَروحُ له جمهورٌ متسع من طلاب العلم والناشئين، وخصوصاً حين يصادفون نصوصاً غربية تُشَابه كلامَ علمائنا، ويشعرُ القارئ حينئذٍ بنَشْوة مُمْتعة، لأن شيوخنا الأوائل كان عندهم علم (بالتناص) مثلاً، ولغلبة هذا الأمر رأيت بعضَ الباحثين الفضلاء كتبوا كُتُباً ليس لهم فيها دراسات وإنما هي اختيارات من نصوص علمائنا، وضعت لها عناوين من قضايا الفكر الغربي، أو هي نصوص شابهت كلامَ النقاد الأوربيين، أو تراءت نارها لمن يطل عليها من القباب الرومية .

وليس من السهل أن تهاجمَ هذا الاتجاه إن كنت ترى فيه اختلالا، لأن أتباعَهُ ليسوا من الماركسيين ولا ضُلال نصارى العرب، ولا ملحدين كأتباع التيار الأول، وإنما هم مؤمنون بأهمية التراث، ويرون في هذه الخطرات المتشابهة مع فكر الآخرين إشارةً إلى بقايا الحياة في بقاياه، وهذا طاردٌ لليأس وفقدان الثقة الذي طالما ألح على تثبيته الاتجاهُ الأول، ثم إنه يمكننا إحياء علومنا بإضافة هذه المقتبسات إلى ما عندنا، وهذه المقتبسات شاهدُ صدق، ودليل لا يتطرق إليه شكٌ على صحة ما قاله علماؤنا، لأنها من كلام الأمم المتقدمة، وهذا حسبها .

وهناك فكرةٌ تُذْكرُ كشاهد لتثبيت هذا الاتجاه، وهي أن علماءنا في العصر العباسي نقلوا علومَ اليونان وأفادوا منها في تصانيفهم، لأنها علمتهم

التبويب والتنظيم والمنهج، وكانت علومهم كأنها أكوام من المعرفة لا يُعْرف منها رأسٌ من قدم، وهذه فكرةٌ غريبةٌ ومَشْبُوهةٌ، وقد ملأت الكتبَ، وألحَّتْ على عقول أبنائنا، وفي مراحل التعليم الأولى، حتى تثبت ولا يسهل زحزحتها أوالتشكيك فيها، ولم أعرف أن علماءنا أشاروا إليها، وهم الذين نقلوا العلومَ وهم الذين أفادوا وهم الذين تعلموا التبويب والتصنيف، لم أجد كلمةً واحدةً شاردةً ولا واردة لعالم منهم لا في عصر الترجمة، ولا في القرون التي بعده إلى زماننا هذا تدلُّ على أن علماء المسلمين تعلموا التصنيفَ والتبويبَ والمنهجَ من ثقافة اليونان. ولا يتصورُ عاقلٌ أن تكون العقولُ التي أبدعت المعرفةَ وصنَّفتها واستخرجتها عاجزةً عن تبويبها وتصنيفها .

أقول هذه فكرة غريبة وشاذة وغير معقولة، وإنما أشاعها في هذا العصر من أرادوا أن يقنعوا العقل الإسلامي بالأخذ عن الآخرين، وباهتزاز الثقة في علمائه وحضارته، وأن يوحوا إليه أن آباءه الأولين لم يستطيعوا أن يسلكوا دروب المعرفة إلا وهم محمولون على عكاز يوناني، وكذلك نحن الأحفاد علينا أن نهتدي بعقول أحفاد من اهتدى آباؤنا بآبائهم .

أَبُوكَ أَبُو جَهْلٍ وجَدُّكَ مثله

ولسْتَ بخَيْرٍ من أَبِيكَ وجَدِّك

ومادام الأمر كذلك فلا يكن في صدرك حرج أن تنير عقلك بنور هؤلاء الأحفاد، فقد نوَّر آباؤهم آباءنا في سالف الدهر .

وإذا وضعت بإزاء هذا ما نقرؤه من الإلحاح على أن العقلية الإسلامية غير قادرة على أن

تتخطى أسوارَ المجهول، وأن قدراتها لا تتجاوزُ الحركة في المعلوم، وهي عقليةٌ شارحة ومعلقة وليست مبدعة، ولابد أن يكونَ بين يديها من المعرفة مَتْنٌ من وضع غيرها، لتعمل فيه وليس في إمكانها أن تصنعَ لها مَتْناً، وأن علومها قامت على شرح علوم اليونان، وأن أرسطو لم يكنْ معلماً للعرب في الفلسفة والأخلاق فحسب، وإنما كان معلمَهم في البيان أيضاً .

ثم إن القولَ بأن التراث الإسلامي من ألِفِه إلى يائه غيرُ قادر على تكوين عقلية علمية، وغيرُ قادر على تكوين حِسٍّ أدبي، وأن من يقرأ الأدبَ العربي وحدَهُ لا أدبَ له .

أقول إذا وضعتَ هذا بإزاء الكلمة الغريبة والشاذة عن التَّرْجمة في العصر العباسي، وجدتَ الكلامَ بعضه من بعض، وكأنه خرج كله من

مخرج واحد، وأنه كله يُلقي ظلالا من فقدان الثقة في علومنا وعلمائنا، وإذا تذكرت مع هذا مقالة المستشرقين في ضرورة تدمير الحضارة الإسلامية بزلزلة قواعدها التي هي علومها، رأيتَ هذا امتداداً لذاك، وتأكَّدَ أن كثيراً من الأفكار الدائرة في زماننا حول عقليتنا وعلومنا محتاجةٌ إلى فَحْص وأن كثيراً منها ملوث .

وإذا عرفنا أن هذا الكلام شاع في الكتب والمقالات والمحاضرات، وطُرِحَ في كل مطرح، وصار يُتَلقى به أبناؤنا في مراحل التعليم المختلفة، إذا عرفنا ذلك رأينا أموراً تستوجب الوقفة، ولا يجوز أن يمرَّ عليها العاقلُ مرورَ الكرام، لأن هذا الشأن ليس فيه مجالٌ لحسن الظن.

وأخيراً إذا وضعت مذهب الوسط هذا بجوار ذلك كله وجدته متصالحاً مع كل هذا ومُتَوَافِقاً معه.

وإذا كان الاتجاهُ الأول اتجاهاً مدمِّراً لحضارتنا، فهذا الاتجاه أشدُّ منه ضَرَاوةً، لأنه مدمِّرٌ، ولكن بطريقة هادئة لا يسمع فيها الناس انقضاضَ حصونهم فيستيقظوا، ثم هو يدمِّرُ فكرة فكرة، لأن الفكر الغربي في داخل هذه المؤلفات لا يُسَالمُ الفكرَ الإسلامي، لأنه دخل دخول المُسْتعلي الذي يملكُ أن يشهدَ للفكرة العربية بالصلاحية، فتبقى الفكرة، وهي مَدِينةٌ لهذه الشهادة، أو يشهدُ عليها بالتخلف والفساد فيخلعها من باب العلم ويرمي بها في أودية الجهالة والسَّذاجة والسَّطْحية.

ولهذا ترى هذه المؤلفات وكأنها لم تُبْنَ على حوار الفكر، وإنما بُنِيَتْ على الصِّراع الذي ينتهي

دائماً لصالح الفكر الآخر، وراجع قراءة هذه المؤلفات وقد تجد بعضها بُنِيَ على ذكر صفحتين متقابلتين: صفحةٍ من الفكر الإسلامي وصفحةٍ من الفكر الغربي مثل كتاب (فن القول) لأمين الخولي، ويقولُ المؤلفُ في أسفل الصفحة المأخوذة من كلام علمائنا: انظر لترى وجهاً شاحباً معروقاً، وفي أسفل الصفحة المأخوذة من الآخر: انظر لترى وجهاً حيّاً وحيويّاً، وكأنها إعلانات دعاية وليست كتبَ علم .

وهذا الاتجاه الذي كثُرَ تابعُه كما قلت، ليس له نظيرٌ في علوم البشر، ومن قرأ أن أمة أحيت علومها بإدخال علوم الآخرين في شرايينها فليدلنا على ذلك، ومن رأى كتاباً في مشرق الأرض ومغربها قام على أمثال هذه التركيبة، والتوليفة الشاذة، فليخبرنا بذلك، ورحم اللهُ الدَّمامِيني الذي

قال حين احتَجَّ المخالفون على رأي برأي لسيبويه قال: إنه لا يُحتجُّ برأي على رأي، وإنما يُحتجُّ بصريح العقل وصريح النظر، وقوة البرهان، وصواب الدليل، وهذا كلامٌ مستقيم جداً، وقد أورثنا الكسلُ العقليُّ رذيلةً في تحصيل العلم وهي متابعة ما عليه جمهور الناس، من غير مراجعة، مع أن العلم في جوهره مراجعةٌ، وتدقيق، وليس فيه شيءٌ يحصله المرء وهو مُغْمَضُ العينين، وقد انتهى بنا الكسل العقلي إلى أن صرنا كأسراب الطير يتبعُ بعضنا بعضاً، وتعجبُ حين تجد أفكاراً كثيرة فاسدةً وشائعةً عند جمهرة الكاتبين، حتى إنك لتترددُ وتتخوفُ من مصادمتها، ولو كان فسادها عندك بيِّناً كفلق الصبح إلا أن تقوي عزيمتك بما تستيقنه من حق وصدق، وما تستشعره من أمانة العلم فلا تعبأ بالوقوف في وجه

التيار مهما كانت كثرته، ومهما كان سلطانه وعُنْفه، ومهما كانت (نجومية) رجاله، لأنه في يقينك باطل والباطل زَهُوق .

وأمرٌ آخر مَكَّنَ لهذا الاتجاه، هو أنه في غيبة الوعي العلمي شَكَّل هذا الاتجاه الفاسد منهجاً قام عليه الدرس في كثير من معاهد العلم، وقام عليه إعداد أجيال بعد أجيال، وأصبح عند هذه الأجيال التي ربيت عليه أصلا صحيحاً غير قابل للمناقشة، ومَكَّنَ له الاتجاه الأول البغيض، والذي تبنَّاه الماركسيون وضُلال النصارى العرب، كما مَكَّنَ له أيضاً ركودُ الاتجاه الثاني واكتفاؤه بالتحصيل والفهم والتفهيم للمعرفة المكتوبة في المتون والشروح، والتي لم يجاهد علماء العصر في نقلها إلى الصور الذهنية الملائمة لإيقاع

الزمن، مع المحافظة الكاملة على جوهرها وعلى نقائها .

أقول كلُّ هذا وغيرُه مَكَّنَ لهذا الاتجاه واتسع، ومضت إليه الأجيال وهي معصوبة العينين، وهو خطر كله وفساد كله، وليس فيه شيءٌ من الصواب يدعو لمهادنته ومساكنته، وهو خطر على نفوس طلاب العلم الذين يتلقونه بنفوس طَرِيةٍ غَضَّةٍ لأن الطالبَ يرى ماضيه وتراثه وتاريخه من خلال هذا النص الشاحب المعروق على حَدّ عبارة أمين الخولي، وهذا قتلٌ لهذه الذات وتدميرٌ نفسي لا يرحم، ومن الوِجْهة الأخرى يخلقُ في أنقاض هذه النفس المحطمة شعورَ المهابة والتوقير للفكر الآخر .

ولا أعرفُ علماء أمة ربَّوْا أجيالها على هذا الأصل الدنيء الظالم، ومن أخطر آثاره أنه يُورثنا

الكسلَ العقلي، وينسينا الكدْحَ الحر بالعقول الحرة، لأنك تستطيع أن تكون عَلَماً من أعلامه، وأن تكون مُجَدِّداً وصاحبَ نظرية بقراءة متن من متون علومنا، مثل أن تقرأ في النحو (أوضح المسالك) وأن تقرأ في البلاغة شرح المختصر، ثم تقرأ متناً من متون علم اللغة أو علم الدلالة أو النقد الأدبي في لغة أخرى، ثم تؤلفُ من المتنين توليفة، وأنت مُتمدِّدٌ على أريكتك تَحْتسِي قدحاً من الشاي، وبذلك تكون قد جددت النحو أو البلاغة وتكون صاحب نظرية، وما دام حولك بعض تلاميذك المدربين على صنع الدعاية، فإن هؤلاء سيتحدثون عن نظريتك في دروسهم ويكتبونها في بحوثهم ويشيعونها بين الناس، حتى تدخل ما دخل عليه النهار .

وهؤلاء التلاميذ يعرفون حقيقةَ هذا التجديد، وحقيقةَ هذه النظريات، إن لم يكن اليوم فغداً حين تتوافر معارفهم، وسيسلكون الطريقَ نفسَه، ويصنعون ممن حولهم تلاميذ لهم ليقوموا بما قاموا به من قبل، ثم يقرؤون متناً من هنا ومتنين من هناك ويصنعون نظرية جديدة، وهكذا يتكاثرُ المجددون وتتكاثرُ النظريات، والعلوم تتراجع بدلا أن تتقدم وتخبو بدلا أن تَسْطع .

وليس هذا من خُلُقِ العلم وأهله في شيء، وللعلماء طريق واحد في كل الأمم وفي كل الأجيال، هو الكد والدأب والانقطاع والشغل الدائم الدائب لخواطر النفس بما يعالجون من مسائل، وتلاميذهم من حولهم يرونهم وهم في معمعان الجد والصدق يحملون الأمانة حمل الأوفياء البررة، ويطرِّقون طرقَ المعرفة بأنفس ما يملكون

من عُمْر وعافية وكد، ويسلكون في شعابها وأدغالها يشقون صعوبات بعد صعوبات نحو غايات نبيلة، ومن ورائهم تلاميذهم يروا من جدهم وصدقهم وجهدهم، فتعظم في نفوسهم أمانة العلم والصدق والحق، يمضون على هدي شيوخهم الذين هم كأنهم أوتاد الأرض وهم القوم كل القوم، وهم الهداة وهم الحُدَاة، وأمثالُ هؤلاء جديرون أن يكونوا صالحين مصلحين، وهم حملةُ التنوير الحق، وهم الذين تَعْمرُ بهم البلاد، ويقتدي بهم العباد، وهم الذين أسَّسُوا العلومَ وأقاموا الحضارات، وهكذا كان علماؤنا وكان علماء غيرنا ممن أفرغوا في بلادهم نوراً، وأضاءت بهم الظلمات، ورفعوا للعلم المنارات ذكرنا طرفا من أخبارهم وهم المجددون والرواد في عالمنا المتخلف وفي زماننا الرديء، وقد كثُرَ المجددون

وكثُرَ الرواد وكلُّ شيء على ما هو عليه، لا تجديد ولا زيادة، وإنما هو تكثيرٌ في سوق (التهــويش) القائم في بلادنا .

وأكثر هؤلاء يَذْهبُ كلُّ شيء بذهابهم، ويدخلُ معهم قبورَهم، ويُدْفنون مع كل زَيْف عاشوا له، إلا أن يَرَوْا في بقائه حيّاً مصلحةً لمجدد حيٍّ يربطُ حبالَه بمجدد ميت .

وقد أطلتُ الكلامَ في هذا لأنه كله دائرٌ حول علاقتنا بتراث الأمم، وقد جعلته مقدمةً لعلاقات علمائنا القدماء بتراث الأمم، وأضعُ هذا بإزاء هذا لدى الجيل الحاضر، ما عليه علماؤنا اليوم في هذه القضية المهمة، وما كان عليه علماؤنا بالأمس .

وأقول إن النظر التفصيلي لموقف علمائنا من تُرَاث الأمم يحتاجُ إلى جُهود ومراجعة في كل

باب من أبواب العلم، وفي كل أصل من أصول المعرفة، وفي كل فرع من فروعها تفصحُ جَلِيةَ هذا الأمر الذي دخله لَبْسٌ كثير، وإنما تكون هذه المراجعات من المتخصصين في كل هذه العلوم، لأنهم يعرفون نَشْأَةَ كلّ مسألة، وقصة نموها وتكاثرها، وكأنها كانت تتحرك بين أيديهم طوراً بعد طور، يعرفون هذا بإحكام وبيان، ويعرفون كيف كانت تأتيها موجات قوية من التفكير والنظر، في أطوار معينة، فتنمو وتزدهر، وكيف كانت تنقطع عنها هذه الدفعات فتقف وتتجمد، ويعرفون مصادرَ هذا، وما إذا كان من داخلها أو من خارجها، وما إذا كان هذا الخارج من خارج هذا العلم ولكنه من عائلة العلوم العربية الإسلامية، كأخذ النحاة من الفقهاء، أم أن هذا الخارج وافدٌ من علوم أمم أخرى .

على فرض أن ذلك قد كان، لا يستطيعُ أن يقضِيَ قضاءً عادلاً في مسيرة كل علم وكل مسألة منه، إلا أفرادُ علمائه الذين عاشوا له وانقطعوا وراجعوا ورجعوا وقبلوا ورفضوا وأخذوا وأُخذِ عنهم، وهؤلاء قِلةٌ قليلة في كل عصر، وهم في كل زمان يشبهون أنبياءَه، لأنهم الوَرَثة الذين جاء فيهم الخبرُ الشريف.

من غير أن أدخل في قصة العلوم عِلْماً عِلْماً، وربما أشرت إلى خصوصيات ظاهرة في طبيعة بعض العلوم تجعل القولَ بالاستمداد من خارج اللسان في تأصيل معارفها قولا باطلا، وإن كان قد شاع كالقول بأن البلاغة ذاتُ أصول يونانية، وأن أرسطو كان معلمَ العرب فيها، ومثل هذا وإن كان لا خلاف عند أهل التدقيق في فساده، لا يزال يكرره علماء، ويعلمونه تلاميذهم، لأنهم أخذوه عن

غير أهل التحقيق، وهم في سنوات الطلب ولم تتوافر لديهم الوسائل العلمية التي تعينهم على بيان جَلِيةِ الأمر فيه .

ثم إنه لا كلام لنا في عِلْمَي الفلسفة والمنطق لأنهما ليسا من عائلة العلوم العربية والإسلامية، التي يَعْرِفُ العلماء أنها أصولُ الحضارة الإسلامية، ولأنها شرحٌ وتحليلٌ لكلام الله وكلام رسوله ﷺ ، وبيان الحلال والحرام، وأكررُ أنها السبيل الذي لا نعرفُ سبيلا سواه لفهم دين الله، وأن الضربَ فيها يعني قطعَ الطريق الواصل إلى فهم حقيقة دين الله، والنحو في ذلك كالفقه، الذي هو علم الحلال والحرام، والبلاغة والتفسير والعقائد كل ذلك سواء بخلاف الفلسفة وعلم المنطق فإنهما لا شأن لهما في هذا الباب .

وقد شغلت الفلسفةُ حيِّزاً محدوداً في تراث المسلمين، وظلت محصورةً في دائرة محدودة، وقد هجاها كثيرٌ من علمائنا، ورفضوها وجرَّحُوا عقائدَ من طالت ممارستُهم لها .

ومن الحقائق الظاهرة التي يجبُ أن نستصحبَها ونحن نتكلمُ عن علاقة علمائنا بتراث الأمم شيوع روح الحذر والاحتياط والبعد عن التزيد في استنباط أصول المعرفة، فقد كانوا يتوقفون ويراجعون، حتى تتوافر لديهم الشواهد والبراهين التي تؤكد لهم الحقائق التي يؤصلونها، لأنهم يعلمون أن خلاف هذا التأكيد والتوثيق وإقامة الحجة بعد الحجة يفضي إلى الاختلال في فهم كلام الله، لأنها ليست أصولاً لغوية يكونُ الخطأُ والصوابُ فيها في دائرة اللغة فحسب، وإنما هي وسيلة لفهم كلام الله، والخطأُ فيها ينتقل إلى الخطأ

في فهم كلام الله، فإذا قلنا إن: " إنَّ " تُفِيدُ التوكيد، فإن هذا يعني أننا نقول: إنها في هذه الجملة القرآنية تفيد التوكيد، يعني أن التوكيدَ هنا مرادٌ من مُرَاداتِ الحق جلَّ جلالُه، وهذا كلامٌ لا يجترئُ عليه إلا من تَثَبَّت واستيقن .

وهذا الأمر وحدَه يكفي في صَرْف علمائنا عن إدخال أي فكر من علوم الأمم الأخرى في هذا الباب .

وقد أفادوا من الفقهاء ومنهجهم، وكان ابن جني يقول: إنه بنى كلامه في أصول اللغة على كلام الفقهاء في أصول الفقه، وعلمُ الفقهِ في تراثنا هو العلمُ الأعلى، وليس عند الأمم الأخرى مثلُه، وقد قام النظر فيه على أصل من الاحتياط والضبط في الاستنباط والقياس، وقد تميز بهذا، وصار علماً له منهج رفيع ومتقن، حتى إنك ترى

هذا العلم وحدَه قادراً على تكوين عقل حي يتحلى بأدق أصول المنهج ضبطاً ولمحاً ونفاذاً، وأصل هذا كله مستمدٌ من رسول الله ﷺ ، وطريقة بيانه للقرآن، ومن علماءِ الصحابة رضوان الله عليهم الذين أخذوا عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، وقد أفادت العلومُ العربية من هذا المنهج وأمدَّها بكثير من مزاياه، فقام منهجه على التقصي ودقة النظر وذكاء الملاحظة، وسلامة القياس وتوفُّر المراجعة والاستدلال، وغير ذلك مما يقتضيه الضبط والسداد، ومن أراد أن يتعلم المنهج فلينظر إلى كلام الفقهاء، لا ليحصل المسائل التي يذكرونها فحسب، ولكن ليرى حركةَ عقولهم وهي تحاورُ النصوصَ وتستنبطُ وتستخرجُ وتأخذُ وتدعُ وترجحُ إلى آخر ما في هذا من حيوية عقلية بالغة الدقة والملاحظة، ومن لم يقرأ

كتبَ الفقه ببصيرة فلا يجوز له أن يتكلم في تراث المسلمين .

ولهذا قلت إن القول: " بأن الترجمة في العصر العباسي أفادت المسلمين المنهج وعلمتهم التبويب والتصنيف " من الكلام الذي لا يروج عند من عرف دقَّة النظر عند الفقهاء الذين كانوا هم المعلمين الحقيقيين لعلماء الأمة.

ولا أشك في أن علماءنا كانوا يقرؤون من تراث الأمم كلَّ ما يتاحُ لهم أن يقرؤوه، لأن طبيعة العقل المشغول بالمعرفة تدعوه إلى أن ينظر في ثمار العقول، وأن يتعرف على تجارب العلماء والأمم، وأن ينظرَ في كل ما يتاحُ له النظر فيه ليعرف كيف يفكر الآخرون، وماذا يقولون، وهذا أمر في طبع النفس وفي طبع العقل، لا أستطيع أن أتصور أن يكون التراث

اليوناني أو غيره منقولا إلى لغتنا وفي مكتباتنا وعلماؤنا المنقطعون للبحث والدرس عازفون عن النظر فيه، لأن هذا يخالف الطبائع التي تغلب على أهل العلم لأنهم أهل التَّوق الدائم إلى المعرفة، وقد علمهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه أن المعرفة لا وطن لها، وأن الكلمة الحكمة ضالةُ المؤمن، يعني هي كضالته التي يَنْشُدُها في كل مكان يظن أن تكون قد ذهبت إليه، والضالة لا تفرق بين أرض الكفر وأرض الإسلام، وهكذا الكلمة الحكمة لا وطن لها، ثم إن الباحث عن ضالته التي فيها متاعه وطعامه وشرابه يبحث عنها بعناية شديدة ويصرفُ إليها كل هَمِّه، وكذلك القلبُ الحي في بحثه عن الكلمة الحكمة المتضمنة هَدْياً ورشاداً، يبحث عنها بولَعٍ وحب وتوق وصبر وترقُّب وانقطاع، وهذا وصفٌ رفيع للمؤمن، ولو

أن الأمم الإسلامية أشاعت بينها هذا المعنى النبيل المتضمن في تلك الكلمة الجامعة من كلامه صلوات الله وسلامه عليه لكانت مجتمعاتنا على حال غير الحال التي نحن عليها، لأن أمة التخلف ليس لها دواء إلا دواء واحداً يطب لها، وهو القراءة والبحث الصادق عن الكلمة الصادقة، ووصف الكلمة في الأثر الشريف بالحكمة يبتعد بالعقلية الإسلامية عن الخوض في الزيف والأباطيل، والمعرفة المدسوسة والقائمة على التلبيس والتدليس والتهويش، إلى آخر ما يمكن أن يكون في عالم الكلمة إذا زاغت وانحرفت وضلت وتركت سبيل الحكمة .

إن علماءنا الذين انقطعوا لطلب العلم وذاقوا حلاوتَه ولزموا أبوابَه فتحوا كلَّ آفاقهم لعلم نافع، وكلِّ فهم صحيح، وكلِّ فكر عالجه أصحابه

بصدق وجد وأمانة، ولكنهم مع هذا كله لم يذكروا شيئاً من هذا الفكر الآخر في معالجتهم لعلوم العربية، وإنما اقتبسوا علمها بالمنهج الذي وصفناه من دلالات اللسان العربي نفسه، وما نطق به أصحاب اللغة، فإذا قالوا بوجوب تقديم الاستفهام فلأن أصحاب اللسان أوجبوا تقديمه، وإذا قالوا بوجوب حذف الخبر في موطن كذا فلأن أصحاب اللسان فعلوا ذلك، وتأمل أصولهم تجدها قد تأسست على طرائق العرب في بناء كلامهم على وفق مقاصدهم، تأمل قول سيبويه :" كأنهم يقدمون الذي بيانه أهم لهم، وهم ببيانه أعْنَى " تجده مقتبساً من طرائق القوم ومذاهبهم، وما أسسوا عليه كلامهم، وهذا يعني أن علماءنا وهم يستخرجون علومنا لم يكن أمامهم في هذا الشأن لا تراث اليونان الذي قالوا: إن البلاغة اقتبست منه، ولا

تراث الهنود الذي قالوا: إن النحو اقتبس منه ، وإنما بين أيديهم بيان العرب عن معانيهم وطرائقهم في التلطف إلى هذه المعاني، وهذا أمرٌ ظاهر لكل صاحب نظر علميّ جاد، وليس من مقاصده اتهامُ العقلية الإسلامية ولا الدفاع عنها، وهذا الذي جعل علمهم صالحاً ورشيداً وهادياً إلى معرفة أسرار هذا اللسان إلى يوم الناس هذا، وإلى ما بعد هذا اليوم، ما دامت الألسنة جارية بهذه اللغة الشريفة لأن العلم ما دام قد اقتبس منها واستنبط من أحوالها، فلن يتغير ولن يحول .

وكان من ثمرة هذا التوفيق في استمداد أصول اللسان أن تحقق لعلمائنا ما أرادوه مما هو نتيجة طبيعية لهذا المنهج ، وهو تثبيت أحوال اللسان عند هذا المستوى الذي وصلت إليه العربية في

زمان نزول الوحي، حتى يظل كلام الله مفهوماً وكلام رسوله ﷺ مفهوماً .

وقد كان ذلك، ولايزال عامة المسلمين في مجتمعاتنا المختلفة يسمعون كلامَ الله سبحانه فتخشع له قلوبهم، ويسمعون كلامَ رسوله صلوات الله وسلامه عليه فتنفعل به نفوسهم، ولو اهتزت هذه الضوابط وتغيرت بتغير الأزمنة والأحوال، وانتقل استمداد شواهدها وأصولها من اللسان الذي نزل به القرآن، وتكلم به النبي ﷺ لانتهى الأمر مع تغير الأزمنة والأحوال إلى ضعف الصلة بيننا وبين كلام الله سبحانه، وهذا لن يكون لأن الله سبحانه تعهد بحفظ القرآن ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] وهذا الوعد متضمن حفظ اللسان، لأنه يستحيلُ أن يحفظ القرآن وتضيع لغته، لأن معنى الحفظ أن يظل

مقروءاً مفهوماً في الأمة، ولن يكون كذلك إلا ببقاء لغته تدور بها ألسنتنا وتسمعها آذننا .

ولننظر في تراث محمود بن عمر الزمخشري لنرى إماماً في البلاغة والنحو واللغة والغريب والتفسير والحديث والفقه والقراءات، وغير ذلك مما ألف فيه، ولندع كلامه في العقائد، لأن علماءنا قاموا بواجب مناقشته وردِّه، وإنما ننظر إلى تراثه من هذه الجهة التي نحن فيها، وأنت واجد تراثاً لغوياً حافلاً، يخلو خلواً كاملاً من أي إشارة إلى أي فكر أعجمي، وإنما اللغة مُسْتقاةٌ من أفواه أصحابها وما تكلموا به في بواديهم وما خطبوا به في نواديهم، وما تَرَاَجَز به الأعرابُ وهم يَمْتحون الماء من آبارهم، والنحو مقتبسٌ من صلب اللسان، والبلاغة مقتبسةٌ من مذاهب القوم،

وما أودعوه في لغتهم من رقائق المباني التي أودعوا فيها دقائق المعاني .

لا تستطيع أن ترى شيئاً في كلام الرجل من هذه العلوم يدلك دلالة ما على أن الرجل له علم بعلوم الآخرين، ثم إنه كتب كتاباً ضخماً سماه (ربيع الأبرار) جمع في هذا الكتاب شيئاً كثيراً من حِكَمِ الفرس واليونان والهنود وغيرهم من الأمم، وهو مشحون بأسماء الأعلام البارزين في تاريخ كل أمة من هذه الأمم، فيه شعراء وحكماء ومؤرخون ومفكرون وفلاسفة وقواد جيوش وملوك، وهذا الكتاب كأنه خلاصة تجربة الإنسانية وحكمتها، وقد بُنِي على كلام الأعاجم، وهو دال دلالة قاطعة على أن الزمخشري لم يطلع على تراث الأمم فحسب، وإنما تدَّبره ووعاه وتمثله وقيَّدَه في دفاتره واختار منه هذا السِّفرَ

الضخم، ومن المؤكد أن الزمخشري لم يستخرج هذه الآداب وهذه الحكم من تراث الإنسانية إلا بعد أن قرأ تراثهم في اللغة والشعر والتاريخ والوقائع، وقد ذكر من كلام سقراط وأفلاطون وأرسطو حِكماً وآداباً، وهذا قاطع في أنه قرأ تراث هؤلاء الثلاثة، وهم أعيان العلم وأعلامه في أمتهم، ومع هذا يخلو تراثه العلمي في اللغة والنحو من أي إشارة إلى أي معلومة أعجمية تكون قد سقطت في لسانه، وهو في معمعة البحث والتنقيب، وقد كتب هذا الكتاب ليستروح به الذين يقرؤون الكشاف من عَنَاء النظر ومشقة المتابعة، وقد كتب الكشاف في آخر حياته رحمه الله، وكتاب (ربيع الأبرار) كُتِب بعده، وهو كما قلت: سيل يَهْمِي من الحِكم والآداب والتجارب، لا تتوافر مادتُه الغزيرة إلا

لمن عاش زماناً بعد زمان يراجع، وكأنه نفض له تراث الأمم .

وتسميةُ الكتاب لها دلالةٌ، لأنه نظر إلى ما فيه جانب السهولة والعذوبة والغزارة فسمَّاه (ربيعاً) لنضارته وغَضَارته، ثم ذكر (الأبرار) للإشارة إلى طلاب العلم المبتدئين في قراءة الكشاف، وكان الكتاب الذي هو الكشاف مع امتلائه وتنوعه ومشقة تحصيله، لا يزال في متناول المبتدئين .

وبالمناسبة أذكر شيئاً في هذا يذكرنا بما قلته من أن علماءنا كانوا ينظرون إلى الأجيال ويجتهدون في تقريب المعرفة العربية والإسلامية إليهم، وكانت مسألة انتقال العلم إلى الجيل الثاني الممَثَّل في التلاميذ مسألة أساسية لم يغفلوا عنها أبداً، أقول بهذه المناسبة إن حمزة بن يحيى العلوي لما بدأ يقرأ لطلابه كتاب الكشاف وجدهم

قد ضعفوا عن حمله، وكان قد مضى على زمن الزمخشري ما يقارب قرنين، فكتب لتلاميذه الذين يدَرِّسُ لهم كتابَ الكشاف كتابه (الطراز المتضمن لعلوم البلاغة وحقائق الإعجاز)، ليحصِّلوه أولا، ثم ينتقلوا إلى كتاب الكشاف .

وقد جعلتُ هذا معترضاً لأشير إلى هموم أهل العلم بالأجيال اللاحقة وبمسألة توريث العلم لهم وإعدادهم لتنتقل إليهم المعارف والعلم الشريف، وعمل ما يلزم لهذا وملاحظة التطور الزمني والتغير الثقافي يفعل فعله في الأجيال .

وأعود إلى المسألة وأقول: إن الزمخشري كان عالماً بالفارسية لأنها لغته ولغة من حوله، ولم يكن الزمخشري من سلالة عربية وإن كان عربي القلب واللسان، وإنما المرء بأصغريه: قلبه ولسانه، وبعدما نزلت كلمة الله في العرب لم تبقَ

العروبةُ جنساً، وإنما صارت ديناً ولغةً وثقافةً وأدباً وحضارةً، ومن دخل في دين الله وجَرَى لسانُه بهذه العربية الشريفة وثَقِفَ شعرَها وأدبها وعلومها، وجَرَت خواطرُه على مذاهبها فهو عربي، وفي الأَثَر : " من تكلَّمَ بلسان العربية فهو عربي "، وإنما قال: بلسان العربية، ولم يقل: بلسان العرب، لأن العربَ قد يَخْتَلُّ لسانُهم عن عربيتهم الشريفة العالية فجعل العربية الشريفة التي نزل بها القرآن، وتكلم بها النبي صلى الله عليه وسلم، هي الجنس، ثم إن آية الأحزاب ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب : ٦] حبست المؤمنين من بيت النبوة لأن رسول الله ﷺ أولى بهم وهو أب لهم كما في بعض القراءات، وهم أبناء أمهات المؤمنين، وهذا يلتقي مع ما في سورة الحجرات

﴿ إنما المُؤْمِنُونَ إخْوَةٌ ﴾ وهذا كلُّه يجعلُ هذا الدين هو الشريعة هو الأم والأب وهو الجنس، ولهذا لا يُسْتَساغُ أن نقول: إن عبد القاهر الذي علَّمنا كيف نذوقُ العربية أعجميٌّ، وكذلك أبو علي الفارسي وأبو الفتح الرومي ومحمود بن عمر الخوارزمي، نَعَم هو فارسيٌّ ولكنه عربي، وهذا رومي ولكنه عربي وهذه مسألةٌ أشرتُ إليها لأن كثيراً من الكتب تحبُّ أن تذكرَ طبقات من علمائنا وتسَمِّيهم الأعاجم، وأنهم أفسدوا العربية لفقدانهم ذوقها، وهو كلام محتاجٌ إلى أن يُدقق لأن العُجْمة معناها عَدَمُ الإبانة، وليس المرادُ بها الجنسَ المغاير للعرب، وقد ذكر المصطفى صلوات الله وسلامه عليه أن سلمان الفارسي من أهل البيت .

وكان الزمخشري بحكم الفارسية يعرفُ علومَها وطرائق اشتقاقها وأصول نحوها

وبلاغتها، وقد قرأت كتابه (ديوان الأدب) وهو مخطوط ورأيته مكتوباً باللغتين العربية والفارسية، سطرٌ مكتوب بالعربية وترجمته في السطر الذي يليه بالفارسية، وهكذا . وكان كل هذا جديراً بأن يغري الرجل بأن يذكر ولو من باب الموازنة قاعدة فارسية في النحو، أو في البلاغة أو في أي باب، ولكن تراثه خلا خلواً كاملاً من أية فكرة أعجمية، لحرص هؤلاء الكملة رضوان الله عليهم على ألا تهجن هذه اللغة وأن تظل عروبتها نقية خالصة، وكان يوغل في البداوة في اقتباس شواهده فيلتقطها من أفواه الأعراب الخلص، ويوغل حتى يأتي بها من قَرَاضِبة نجد وسماسرة تهامة، كما كان يقول هذا خبر الزمخشري .

وكان ابن جني رومياً يونانيّاً، وكان قريبَ العهد بروميته، وكان التراث اليوناني مطروحاً في كل مطرح حول أبي الفتح، وكانت حداثة عهده بروميته جديرة بأن تغريه بأن يقتبس منه قبسةً من هنا أو قبسة من هناك، وكان في العربية مجتهداً، انتقل بتراثها إلى طور جديد رفيع، وكان حين يَنْغلُّ في دقائقها تعظُم في نفسه، وكان في بيئته علماء لغات، وكان شيخه أبو علي الفارسي من المتمكنين في غير العربية، وكان أبو الفتح يتوقُ إلى الموازنات بين العربية في رقائقها ودقائقها وما تنطوي عليه اللغات الأخرى في أصول بيانها، وكان يفاتح الشيخ أبا علي في هذه الموازنات فيذكر له الشيخ أن من أحكم العربية وعلم غيرها لا تصح عنده هذه الموازنات، لأن العربية اختصت بحكمة في مبانيها، ولا يوجد

شيء من هذه الحكمة في غيرها من اللغات، مع أن الفارسية التي كان أبو علي متبحراً فيها كانت لغة حضارة ومُلك ورياسة ودواوين وكتاب وشعراء، وكانت متسعة، وكانوا يقولون: إن العربية المقتبسة من أفواه الأعراب وقَرَاضِبة الخرائب، أرفع منالاً وأعز سلطاناً وأغزر بياناً وأدق حكمة (والقَرَاضِبة هم اللصوص وإنما اقتبسوا من أفواههم لأنهم يوغلون في البداوة) .

هذه الكوكبة من علماء اللغات الذين كانوا في بغداد وكانت بغداد بهم كأنها مجمعٌ علمي لشتى اللغات والثقافات والحضارات، كل هؤلاء لم يُدْخِلوا في تراثهم الذي كتبوه في العربية وعلومها فكرةً واحدة مما علموه في لغاتهم وعلومهم، وذلك للسبب الذي قدمناه .

وقد أدخل هؤلاء العلماء أنفسهم مقتبسات من علوم العربية في دراساتهم للغة الفارسية، حتى صارت البلاغة الفارسية كأنها بابٌ من أبواب البلاغة العربية، وحين تُنقَلُ هذه البلاغة الفارسية إلى العربية تراها مختصراً من بلاغة العربية، وليس هذا مغايراً لما قلناه من أن البلاغة مستخرجةٌ من صلب دلالة اللسان العربي، لأن الجزء الذي نُقِل إلى الفارسية كان في البديع والتشبيهات والمجازات، مما تشترك فيه اللغات، وأما علمُ المعاني الذي هو جوهرُ البيان وجوهرُ صناعة الشعر فذلك شيء آخر وهو خاص بالعربية لا يُنْقَلُ إلى غيرها .

وهناك عالم من علمائنا يفرض نفسه فرضاً على من يفتح باب الحديث في صلة علمائنا بتراث الأمم، هذا العالم هو القاضي الأكرم جمال الدين

علي بن يوسف القفطي، ينتهي نسبه إلى تيم بن شيبان بن ثعلبة، من بكر بن وائل، وأمُّه بدوية من عرب قُضَاعة، وقد نسب إلى (قفط) بلدة في صعيد مصر عاش فيها، وقد ذكر أنه في أيام صباه ارتقى سطحَ الدار لبعض شغله فوقعت عينُه على جاريتين للجار مذكورتين بالجمال والنعمة، وقال القاضي: كانتا من أحسن بنات الأرض، فشُغِلَ خاطرُ الصبي بهما، وفي لحظة شغل خاطره أمه تنشد قول الأحوص الأنصاري :

ثنتان لا أرضى انْتِهَاكَهُمَا

عِرْسُ الخليل وجارةُ الجنب

قال: فكأن ماءً صب على نار، ولم أرقَ سطحَ الدار بعد ذلك أبداً .

وقد كانت للقاضي مكتبةٌ وصفها ياقوت بأنه لم يُرَ مثلُها، حتى كأنه ليس هناك كتابٌ في الأرض

إلا وعند القاضي منه نسخة، وكان ياقوت قد عاش في دار القاضي زمناً وانتفع بهذه المكتبة، وكانت عامرة بنوادر المخطوطات اليونانية، فيها مقالات كثيرة لأرسطو وبطليموس الفلوذي وغيرهما من مؤسسي علوم اليونان، وكانت هذه المخطوطات قد فُقِدَت من خزائن اليونان، وذكر القاضي ذلك واجتهد في تحصيلها، وقد انعكس هذا الآن وصارت مخطوطاتنا مفقودة من خزائننا وهي في مكتبات أوربا، وكأن الزمانَ يدورُ بكل أحداثه ومكوناته، بالأمس كان لنا، وهو اليوم علينا، وغداً سيكون لنا إن شاء الله .

وكان القفطي يغلبُ عليه التاريخ، وله مؤلفات في العقائد وفي السُّنَّة واللغة والنحو، لأن المؤرخ لتاريخ الإسلام محتاجٌ إلى العلم بكل العلوم العربية والإسلامية، وهو محتاجٌ إلى الشعر والرواية

والغريب لأن كثيراً من الأيام والوقائع لا مصدر لها إلا الشعر، وهو محتاجٌ إلى النحو والبلاغة والعقائد لأن كثيراً من الأحداث والوقائع كانت بسبب الفرق، وفهم الفرق وعقائدها جزءٌ من التاريخ، ولهذا كان المؤرخ كأنه (دائرة معارف) ، وحسبك أن الطبري مؤرخ وابن كثير مؤرخ وابن الأثير مؤرخ، والقاضي إلى آخره .

وقد ذكر ياقوت أنه كان يلازمُ منزلَ القاضي ويحضر مجالسَه مع العلماء قال : " فما رأيت أحداً فاتَحَه في فن من فنون العلم كالنحو واللغة والفقه والحديث وعلوم القرآن والمنطق والأصول والرياضة والنجوم والهندسة والتاريخ والجرح والتعديل، بل وجميع فنون العلم على الإطلاق ـــ إلا قام فيها أحسن قيام، وانتظم في وسط عقْد علمائها أحسن انتظام " .

(معجم الأدباء ١٥/ ١٧٩)

وقد ألف القاضي الأكرم كتاباً سماه (أخبار الحكماء) ذكر فيه النابهين في تاريخ الأمم في كل فرع من فروع المعرفة نبغ فيه نابغ، غير متقيد لا بزمان ولا بمكان ولا بجنس ولا بفرع من فروع المعرفة دون فرع، وإنما ذكر الفرس مع اليونان مع الفراعين الأُول، كما ذكر الأطباء والرياضيين والفلاسفة والشعراء واللغويين، كأنه يؤرخ للنبوغ الإنساني أو للعقل الإنساني المتفوق لاغياً كل الفروق حتى الدين، فأرخ لأقوام من الكفرة وذكر كفرهم وذكر نبوغهم فيما نبغوا فيه، وكأنه كان يَحْتضنُ العقلَ الإنساني الذي قدم للبشرية تحفاً ومن أي لون ناسياً الجنس والزمان والمكان والعقائد والقوميات وكل ما يفصل الإنسان عن الإنسان، أهمل الشيخُ كلَّ هذا ورماه

دبر أذنه وأقبل على الإنسان ناظراً إلى تفوقه لا غير .

وكتب صفحات مشرقة دلت على سمو فكر وغزارة علم وسماحة نفس لا حدود لها، وقلما تجدُ هذه الروح السمحة عند غير علمائنا الذين برئوا من الحقد على الأمم وثقافات الأمم وعلوم الأمم . والأكثر من هذا والأجل منه أن الشيخ لم يكن يؤرخُ لهؤلاء الأفذاذ في فروع المعرفة المختلفة وهو بمعزل عن علومهم، وإنما كان يداخلُ معارفَهم ويعقبُ ويحاور، وكأنه كما وصفه ياقوت طبيبٌ مع الأطباء رياضيٌّ مع الرياضيين متفلسفٌ مع الفلاسفة فلكيٌّ مع الفلكيين وقد ذكر القفطي قصَّةَ دخول التراث اليوناني في بلاد الإسلام، وأن ذلك كان بسبب رؤيا رآها المأمون بن هارون الرشيد رأى في منامه أرسطو كما

وصفته الكتب أبيض مشرباً بحمرة أجلح الرأس أشهل العينين، وقد سأله المأمون قال له : أيها الحكيم ما الحسن ؟ فقال ما حسنه العقل، فقال المأمون ثم ماذا ؟ قال ما حسنه الشرع، فقال المأمون ثم ماذا ؟ قال ثم لا ثم ، فلما أصبح طلب من ملك الروم كتب اليونان فطلبها ملكُ الروم في بلاده فلم يهتد إليها، فاغتم لهذا، وكان المأمون قد انتصر عليه والرجل يريدُ مُصَانعةَ المأمون، وقال: يطلب مني ملك المسلمين تراث سلفي فلم يجده، أي شيء يبقى لهذه الفرقة الرومية عند المسلمين بعد ذلك ؟ وتأمل هذه الكلمة كأن الروم فرقة والمسلمين هم الناس .

ولما علم أحد الرهبان بهذا قال: أيها الملك إني دَالُّك عليها، هي في البيت المقفل، وكان الروم لما دخلوا في النصرانية قد جمعوا تراثَهم القديم كله

وخافوا على عقيدتهم منه، وأودعوه في هَيْكلهم الذي كانوا يتعبدون فيه ووضعوا على بابه قفلاً، واتفقوا على أن يضعَ كلُّ ملك من ملوك الروم قفلا على هذا الباب، وذلك توكيد لحبس هذا التراث، ولما طال الزمن نسي الناسُ هذه القصة واعتقدوا أن هذا البيت المقفل فيه كنوز الذهب، وأن على كل ملك أن يضع عليه قفلا، إشارة إلى أنه أحسن في رعاية قومه وحَفِظَ لهم ثروتَهم وأدَّى لهم أمانتَهم، وبقي خبر هذا البيت عند هذا الراهب، ولما حدَّث به الملك، جمع الملك أهلَ الرأي وفتحوا البيت فوجدوه كما قال الراهب، وقدَّرُوا الكتبَ بحمل مائة بعير، وقال الملك للراهب: هل عليّ من إثم إذا أعطيت ملك المسلمين حاجته من هذه الكتب ؟ فقال الراهب : لا إثم عليك في هذا، بل مأجورٌ إن فعلت لأن هذه

الكتب لا تدخل على أهل دين إلا زلزلت عقائدهم، وزَلْزَلةُ عقائد المسلمين عملٌ من أعمال البر يرضاها الرب .

فأنفذ ملك الروم منها خمسةَ أحمال من الإبل من جنب واحد من غير ترتيب ولا نظام، فلما دخلت بلاد الإسلام جمع لها المأمون التراجمة فنقلوها إلى العربية، ولوحظ أن في كثير منها نقصاً، لأنها أخذت من جنب واحد وأن نقصها ظل باقياً إلى اليوم، لذا كتب فيه القفطي هذه القصة، وهذه القصة تدل دلالة ظاهرة على أن المسيحية أصرت على إبعاد الفكر المغاير، وأنها لابد أن تعيش وحدها في عقول وقلوب أتباعها، لا تنازعها هذه العقول وهذه القلوب ثقافة أخرى ولا علوم أخرى، وأنها رفضت المناقشة والحوار، ووقفت موقفاً متشدداً من الأمس بالنسبة لمن

اعتنقوها، ولم تقبل شيئاً من تراث آبائهم ولم تقبل إلا إبعاده وحبسه، وأن يقفل عليه بالأقفال وأنه من دلائل إخلاص الحكام لأمتهم محافظتهم على عقيدتهم، والرمز إلى هذا بزيادة قفل على الباب الذي يحبس الفكر الآخر ولم تفرق بين العلوم المتصلة بالعقائد والإلهيات وعلوم الطبيعة، وفي هذا التراث المحبوس ما لا صلة له بالعقيدة كالرياضيات والطب وعلوم الهيئة، وغير ذلك من عائلة العلوم المحايدة والتي تحاول أن تغير الإنسان، لا أن تجاذبه عقيدته وثقافته وعلومه وسلوكه، وإنما هي علوم تعمل وحدها بقوانينها خارج الإنسان .

وإذا قارنت هذا بمواقف الإسلام من علوم الأمم وجدت الفرق الهائل، مع أن ضلال النصارى والشيوعيين والعلمانيين وفرع الملحدين

في بلادنا يتجاهلون حقائق التاريخ ويزيفونها ويكذبون ويهاجمون الإسلام مُتَسَتِّرين بالهجوم على علومنا وتراثنا، ويصفون الاتجاه الثاني بأنه اتجاه منغلق يرفض الفكر الآخر ويتقوقع على نفسه إلى آخر ما تراه من قلب الحقائق والكذب الذي لا يُسْتَحَى من كشفه وإظهار مغالطاته .

هذه واحدة، والثانيةُ هي أن الراهب القديم أغرى ملك الروم بأن يرسلَ هذه القافلة من الغزو الفكري لديار الإسلام ليزلزل عقائدها كما قال، لاعتقاده أن قوة المسلمين ودولتهم التي تخافها الفرقة الرومية يرجع أمره إلى هذه العقيدة، فإذا زلزلها هذا الغزو فقد كُفِيت الفرقةُ الرومية أمرها، ولايزال الرهبان يفعلون ذلك، وليس هذا ببعيد عما ذكرته في أول الكلام من توصيات المستشرقين وتقاريرهم ونصائحهم لمؤسسات التبشير والاستعمار

بزلزلة علوم المسلمين التي هي أصول حضارتهم، وأن زلزلة هذه العلوم هو الطريق إلى زلزلة عقيدتهم، والمستشرقون رهبان أو أشباه رهبان وهم جادون ومجتهدون نحو غاية واحدة هي بث الثقافة الأوربية المسيحية في ديار الإسلام وتخليص العلوم العربية والإسلامية إن لم يكن إزالتها عن صفائها ونقائها بغرس عناصر من الفكر الأوربي المسيحي في جسم هذه العلوم حتى تتغير وتتحول .

والقاضي الأكرم قدم كتاباً أكثره في اليونانيات بمقدمة يتقرب فيها إلى الله ويرجو رحمتَه ومغفرته ومثوبته له ولقارئ كتابه، ويقول في هذه المقدمة :" وقد عزمت بتأييد الله على ذكر من اشتهر ذكره من الحكماء في كل قبيل وأمة قديمها وحديثها إلى زماني، وما حفظ عنه من قول تفرد به أو كتاب صنفه أو حكمة عَلِيّة

ابتدعها، أو نسبت إليه، فإني رأيت ذلك من الأمور التي جُهِلت والتواريخ التي هُجِرت، وفي مطالعة هذا اعتبار بمن مضى وذكر لمن سلف، وهو اعتبار أرجو منه الثواب لي ولقارئه إن شاءَ الله تعالى" المقدمة ص ١ .

ولم يكن القفطي غافلا عن مقالة الراهب، التي كتبها القفطي بيده، وهي صريحة في خطر الغزو الفكري، ويعتقدُ القفطي أنه في تقديمه لهذه الشريحة النابهة من الفكر الإنساني يعملُ عملا جليلا .

والأمر محتاج إلى توضيح لبيان كيف يتفق القول بخطر الغزو الفكري مع كل ما قدمناه من أن علماءنا كانوا ينفضون تراث الأمم نفضاً، حتى إنهم كانوا يستصفون صفوه، كما فعل الزمخشري في (ربيع الأبرار) ، وأنهم كانوا في هذا يتبعون

منهجاً أَرْسَى أسُسَه رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله :" الحكمة ضالة المؤمن " .

وجواب هذا أن الغزو الفكري الذي احتشد له أعداؤنا منذ راهب الفرقة الرومية في عهد المأمون، ومروراً برهبان الحروب الصليبية إلى هؤلاء الرهبان الصغار الذين يخرجون علينا من أروقة الكنائس، يتكلمون في صحفنا عن الثقافة والتنوير، وزحف الظلام من ثقافات العصور الوسطى إلى آخره، هو الذي يستهدفُ ضربَ علومنا وزحزحتها عن مواقعها في تثبيت دعائم حضارة الإسلام، والذي تراه دالا على نفسه دلالة ظاهرة في عدائه الشديد للتراث الإسلامي، وإصرَارِه على القضاء عليه إما اجتثاثاً وإما اصطلاماً، كما كان يطالب أفراد الحرس الشيوعي القديم وضُلال نصارى العرب، الذين يقولون كفانا

حديثاً عن خالد بن الوليد وعمر بن الخطاب والجاحظ والمتنبي، ولنتكلم الآن عن الوضعية المنطقية لأوجست كونت والمادية الجدلية لماركس إلى آخر ما قدمنا. وإما ببث الفكر المسيحي الأوربي داخل شرايين العلوم العربية والإسلامية حتى يُقْضَى عليها ببطء، ومن غير أن تَسْتَنفِرَ ضد ثقافتنا جموعَ المسلمين، كما تُوصي بذلك تقارير الرهبان الجدد، الذين حملوا الأمانة منذ راهب الفرقة الرومية حملا لا تفريط فيه .

وهذا هو الغزو الذي لا شك في خطورته والذي يقومُ عليه الآن رجالٌ منا، يقومون ويقعدون بالهجوم على علومنا وتراثنا، وهذا عملهم في كتاباتهم ومحاضراتهم ومؤتمراتهم وأنديتهم، وكأن الكون لم يكن فيه قضية تشغلهم إلا هذه القضية، ولا الغزو الصهيوني الذي يدخل

بلادنا الآن في (زفة سلام) كل هذا لا يشغلُ بالَهم، وليس في دخول الصهيونية ديارنا من الخطر ما يساوي الحديث عن تراث المسلمين وعلم المسلمين وعلماء المسلمين، وفي النهاية زَحَفَ الظلامُ ليس في موكب صهيون، وإنما في موكب التيار الإسلامي .

أقول هذا هو الغزو الفكري الخطر، وليس له صلة بالعلم، وإنما هو عملٌ آخر وتدبيرٌ آخر، وأهدافٌ أخرى، ورجاله لا يجوزُ أن يُحسبوا من العلماء ولا من المشتغلين بالعلم، وإنما يُحسبون على تصنيفات أخرى وهيئات أخرى، وهذا شيءٌ، ووضع تراث الإنسانية تحت بصر المسلمين وبصيرتهم ليقرؤوا فيه وبه تجارب الآخرين وكيف يفكرون، وماذا يقولون وتزداد بذلك عقول المسلمين وعياً وإيقاظاً ـــ شيءٌ آخر، وليس لهذا

الفكر رسالة في أمة الإسلام أكثر من هذا، وهي رسالة جليلة، ثم إنه لا يتعدى الخط الممنوع فيداخل علوم المسلمين ويلابس معارفهم، وإنما تظل علومهم وثقافتهم ومعارفهم خالصة صريحة ولا يداخلها شَوْبٌ من غيرها، كما قدمنا عن الزمخشري الخوارزمي، وأبي علي الفارسي وأبي الفتح الرومي والقفطي التيمي الشيباني . ولما اختلطت عندنا الأوراق وراح كل من اقتبس معرفةً من علوم الآخرين يُدْخلها في علومنا، رأينا صورة غريبة لثقافتنا ومعارفنا، لأن منا من قبس من علوم الفرنسيين وأدخل ما قبسه في علومنا، ومنا من قبس من علوم الإنجليز وأدخل ما قبسه في علومنا، ومنا من أخذ من علوم الألمان وأدخل ما قبسه في علومنا، فصارت لدينا معارف غريبة تضخَّمت وتورَّمت وابتلعت في بطنها عناصرَ

مختلفةً وأخلاطاً غير منسجمة لأنها التقت لقاءً عشوائيّاً وكيفما اتفق، ففقدت الثقافة العربية الإسلامية هويتها، وقد وصف مالك بن نبي رحمه الله هذه الحالة وصفاً حسناً في سلسلة كتبه الجيدة (مشكلات الحضارة) .

والأصل أن يكون كلُّ هذا بعيداً عن العلوم وأن يظل تحت بصر الأمة وبصيرتها، ثم ينصرف الكل نحو علومها، كل ينفحها نفحاً بعد نفح، ويجاهد بصبر في قراءتها وتحليل عناصرها، كما يفعل كل البشر .

ولو راجعنا ما عليه الأمم لوجدنا موقف علمائنا الذي وصفنا بعضه هو الموقف الذي سلكوه .

ومن المعلوم أن تراثنا قد نُقِل إلى أوربا، وأن مخطوطاتنا لا يزالُ منها عندهم أكثر من الذي

منها عندنا، وليست هذه المخطوطات عندهم تُحَفاً وأنتيكات ينظرون إليها من خارجها، وإنما هي عندهم كتبٌ يعرفونها، وقد رأيناهم في بلادنا يَدْفعون أثماناً باهظةً في مخطوطات غير نادرة يبيعها لهم جهالنا، وقد ترجموا كثيراً من كتبنا إلى لغتهم، ولا يزالون يقدمون نصوصاً مترجمة من علومنا لطلاب العلم، ويُنْشَر هذا في مجلات تصدرها الجامعات الأمريكية في بلادنا .

وكنا ولازلنا نراهم في قاعات المطالعة الخاصة بالمخطوطات، يصبرون على قراءتها ساعات طوال لا يملون، وأحياناً يعكفون على قراءة الأفلام المصورة بأجهزة القراءة المعدة لذلك، ومع صعوبة هذا اللون من القراءة كانوا يعكفون بالساعات لا يملون ولم نقرأ في كتاباتهم في علومهم وأدبهم ونقدهم ورجالهم ومعارفهم إشارة إلى شيء من

هذا، بل إن الألمان يدرسون آداب الأمم في أقسام اللغات الأخرى باللغة الألمانية، يعني يدرسون الأدب الإنجليزي في قسم الأدب الإنجليزي باللغة الألمانية، وهكذا كل الآداب بما في ذلك الأدب العربي، وقد سألناهم لماذا لم تكتبوا بحوثكم في لغتنا بلغتنا ؟ فقالوا إن القانون الألماني يحرم دراسة أي فرع من فروع المعرفة على أرض الألمان بغير لغة الألمان، وذلك لأننا نكتب للشعب الألماني لا لأصحاب هذه الآداب، والهدف أن نضع تحت بصر وبصيرة الشعب الألماني عقول البشر قاطبة إن استطعنا ذلك، وهم بالطبع لا يَضعون في علومهم علوم البشر قاطبة، وإنما هناك خطٌّ أحمر ممنوع الاقتراب منه عند كل الأمم، وهو علوم حضارتها وثقافتها وعقائدها وتراثها الممثلة لهويتها وذاتها، لا

يجوز لمعارف البشر أن تتخطى هذا الخط الأحمر الممنوع، وإلا كانت العلومُ خليطاً من الفوضى .

وهنا مسألةٌ قد تَرِدُ معترضةً على كل ما قلناه وهي أن منطق أرسطو قد دخل العلوم العربية في كتب المتأخرين، وخاصة الشُرَّاح وأصحاب الحواشي، وقد أكدنا أن علماءنا حفظوا لعلومنا صفاءها ونقاءها، وأنهم وضعوا تراث الأمم بين أيديهم لا ليدخلوه في علومهم وإنما ليتعرفوا على ما عند غيرهم، ويكون في هذا التعرف من الفائدة ما يكون بتنوع الاطلاع وكثرة القراءة، وكل هذا يثقفُ النفسَ ويهيئها لعمل جيد، وبمقدار كثرة القراءة وتنوع الاطلاع تكون القدرة على الفهم والمناقشة، وقد قالوا إن الذي لا يقرأ إلا كتبَ البلاغة لا يفهم البلاغة، والذي لا يقرأ إلا النحوَ لا يفهم النحو، وإنما لابد من تنوّعِ عناصر

المعرفة والعقل كالجسم لا يكفيه غذاءٌ واحدٌ، قلنا ذلك وأكدناه .

ودخول منطق أرسطو في بعض كتب المتأخرين وفي بعض مسائل منها لم يكن تهجيناً للثقافة والعلوم العربية، لأن منطق أرسطو تقنين لما في فطرة العقول، وليس مادةً علميةً تدخل في العلوم، ولذلك بقيت المادة العلمية في مواطن وجوده في الكتب كما كانت قبل دخوله، ولهذا اختلف الموقف اختلافاً كبيراً بين ما نحن فيه وهذه المسألة، نحن نتكلم عن وضع فكر بديلٍ لفكر أو غرس فكر دخيل في صلب الفكر الأصيل، وهذا هو الخطر الذي لا يهادنه إلا مَدْخولٌ في رأيه أو مَدْخولٌ في دينه أو مَدْخولٌ في وطنيته وانتمائه .

وأضربُ مثالا لتوضيح علاقة منطق أرسطو بعلوم العربية التي دخل فيها، نحن نقول في لغتنا

المألوفة: فلان مسلم لأنه يمني، اعتماداً منا على أن كل اليمنيين مسلمون، فإذا أدرجت هذه المعلومة على مَدْرجة أرسطو قلت : فلان يمني وكل يمني مسلم، إذن فلان مسلم، وصرت إلى شكل من أشكال المنطق، والمسألة هي هي، ومثاله في البلاغة أن العلماء قالوا وهم يعالجون قول الشاعر :

قد أصبَحَتْ أمُّ الخيَارِ تَدَّعِي

عَلَيَّ ذَنْباً كلُّهُ لمْ أصنَعِ

فالشاعر في حالة مشاكسة مع زوجته لا شأن له بأشكال أرسطو، قالوا: إنه رفع (كل) والأكثر أن ينصب لأنه أراد نفي كل ما ادعته عليه، ولو نصب (كل) لكان نفياً لبعض ما ادعته، وليس هذا بمراد، وذكروا في هذا أن ألفاظ العموم إذا سبقها النفي وقلنا: لم أفعل كل ذلك، أفاد أنك فعلت بعضه لأن النفي مُسَلطٌ على العموم، والعمومُ

بمثابة القيد، وإذا دخل النفيُ على كلام مقيَّد أفاد نفيَ القيد، فإذا قلت: ما جاء زيدٌ راكباً، لم تكن نافياً مجيء زيد، وإنما نفيت ركوبَه، وإذا سبقت هي النفي دخل النفي في حيزها كما تقول: كل ذلك لم يكن منه شيء، كما قال الشاعر .

هذه المسألة لما تناولها المتأخرون تسلل إليها منطق أرسطو، وبدلا من أن يقولوا: دخل العموم في حيز الخبر، أو دخل النفي في حيز العموم، ذكروا عموم السلب وسلب العموم، والمادة العلمية باقية كما هي، والنتائج المستخلصة من التركيب ودلالته كما هي، ولكن المادة دخلها نظام جديد ومصطلح جديد، وهذا ظاهر .

وقد شاع خطأً يقول إن منطق أرسطو جدد البلاغة والنحو، وأنا من الذين يكرهون دخول منطق أرسطو في أي علم كان، وكنت أتمنى لو

ابتعد علماؤنا عن هذا، وبالطبع لست مدافعاً عنه، وإنما الواجب أن نتابع ونحلل بدقة وأمانة، وقد قلت ذلك لأنني هنا أصادم كلاماً كثر رواجُه، وأقول إن منطق أرسطو لا صلة له بتجميد العلوم لأنه دخل في مسائل محددة تُعَدُّ على أصابع اليد الواحدة لا غير، وعند شُرَّاح محددين، غلب على عقولهم في المسائل التي أدخلوه فيها، هذه واحدة .

الأمر الثاني أن منطق أرسطو لا شأن له بالمادة العلمية كما قلت من جهة تطورها ونموها، لأنه لا يتعاملُ إلا مع مادة علمية جاهزة، فلم يكن حائلا بين العلماء وصنع مادة علمية جديدة أو بعث فكرة جديدة، أو إثارة فكرةٍ من قضية أو استخراج مسألة كانت خفية إلى آخر ما به تتحرك المعرفة، ليس لمنطق أرسطو شأن بهذا، وإنما يرجعُ توقّفُ العطاء إلى أطوار

التاريخ، بكل ما يُدَاخلها من أوضاع اجتماعية وفكرية واقتصادية وسياسية إلى آخره .

وأزيد كلامي تحديداً فأقول إنني أتكلم عن منطق أرسطو في علوم العربية، أما دخوله في علم العقائد فذلك شأن آخر ودرس آخر .

ومن الخطأ الشائع أيضاً أننا نعللُ صعوبةَ المادة العلمية أحياناً بأن المنطقَ أفسدها، وصعوبةُ المادة ترجعُ إلى عواملَ كثيرة منها دقةُ مسائلها، ومنها الطبيعةُ العقلية للمؤلف وصوره التي يعرض فيها المادة العلمية، ولا شأن للمنطق بهذا، خذ الرافعي مثلا أو العقاد، تجد صورَهُ الذهنية بعيدة، وخواطرهَ شاردةً لا تتمكنُ منها إلا بيقظة شديدة، وتجدُ مثلَ هذا في شعر أبي تمام وشعر المتنبي، نعم إن منطق أرسطو أغمض المسائل التي دخِلها، وأجراها على مَدَارِجه، ولكنها كما قلتُ محدودةٌ جداً .

وبعـــد :

فقد لَحَظ أحدُ علمائنا الأطباء المشتغلين بعلوم الأدب أن اللغة العربية وشعرها وأدبها صـــارت غارقةً في بحر من الأعجميات، فالنقـــد أعجمــي والألسنيات أعجمية وطرائقُ العربِ فـــي تـــذوق اللغة قد باتت مكفوفة، وطرائـــقُ العلمـــاء فـــي تمحيص الأساليب وتصويبها قد غابت وتكـــاثرت فيها العجمة، والعجمةُ عنيدةٌ شرسةٌ لا تقبلُ وجودَ فكر عربي، وأوشكتْ أن تحـــيطَ باللغـــة وتفـسدَ فصاحتها ونصاعتها .

واتَّفَقَ أنْ طَالَبَ أحدُ كُتَّابنـــا بتعريـــب علـــوم الطب، فردَّ عليه هذا الطبيبُ الأديب فـــي جُملـــة واحدة قال: نَعَم نعرِّبُ علومَ الطب، ولكـــن بعـــد تعريب علوم العربية .

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين .

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

* * * * *

محمد محمد أبو موسى

رقم الايداع : ١١٥٦١٠ / ٢٠٠٧